الخطاب الحـــبي فى التراث العربـــي : الفلسفي و الكلامي والتصوفي والأدبي

زمزم أفندي عبد ا لله

Abstract

In intellectual tradition of Islam, Philosophy, Theology, Sufism, besides Arts had been developed rapidly. Almost all human problems become their object of study. Among them is problem of love that is rarely studied.

This article tries to study problem of "love" in the discourses of the above knowledges in general. In Philosophy, the discourse of love is related closely to two problems, namely, the creation of the universe and the impacts of its movements. The first problem has been dealt by such Muslim scholars as Ibnu Qayyim al-Jauziyah, while the second has been developed by the philosophers who grouped themselves in Ikhwan al-Shafa.

In Sufism, the discourse of love has its own meaning. Love for Sufi is not only the problem of relationship between peoples or merely concepts as being thought by philosophers and theologians. For them, love has become medium or highest stage which connect and even unifier between them and God (*Ittihad*). This meaning also differentiates love in the discourse of the Arts which only limits its discussion on the relationships between human beings.

Abstrak

Di antara pengetahuan yang pernah berkembang begitu pesat dan dominan dalam tradisi intelektual Islam adalah: Filsafat, kalam, tasawuf disamping bidang kesusasteraan. Hampir segala persoalan kemanusiaan menjadi obyek kajian disiplin tersebut. Salah satunya – dan ini yang belum banyak dikaji – adalah persoalan cinta.

Artikel ini berupaya mengkaji masalah "cinta" dalam diskursus berbagai disiplin di atas secara umum.

Dalam cabang filsafat, diskursus cinta terkait erat dengan dua persoalan; masalah penciptaan alam, kedua terkait dengan akibat-akibat dari gerak alam itu sendiri. Pandangan pertama ini dapat dengan jelas dapat kita jumpai dalam pemikiran tokoh semisal Ibnu Qayyim al-Jauziyah, sedangkan pandangan kedua dikembangkan oleh para filosof yang tergabung dalam kelompok Ikhwan al-Shafa.

Sementara itu, dalam cabang tasawuf, diskursus cinta memiliki maknanya sendiri. Cinta bagi para sufi tidak lagi sekedar persoalan hubungan emosional antara sesama manusia, atau sekedar konsep-konsep seperti yang dipikirkan oleh para filosof dan teolog. Lebih dari semua itu, cinta bagi mereka telah menjadi medium atau jembatan tertinggi yang menghubungkan langsung dan bahkan sebagai pemersatu antara mereka dengan Tuhan (ittihad). Pengertian ini pula sekaligus yang membedakan cinta dalam diskursus sastra yang hanya membatasi diri dalam soal hubungan antara sesama manusia.

"من لم يفقهه الهوى فهو فى جهل"

(ابن الفارض)

"الحب معرفة علوية تنـــير بصا ئرنا فنرى الأشياء كما يراها الآلهة"

(خليل جبـــران)

١. مقدمة

إن الحديث عن الحب حديث شائق، وأن البحث فيه شائك. والقضية الحبية قضية قديمة قدم الإنسانية نفسها وأقدم من الحضارة التى انبثقت عنها. والله جل شأنه لما منح الحياة للحيوان منحه معها الحب، فالحب فطرة يهبها الله مع الحياة. أم الحيوان تحب صغارها وتدافع عن حياتها اذا ما اعتدى عليها معتد، وقد تملك فى هذا الحب. والإنسان أي إنسان يحيا ليحب ويحب ليحيا، وقد صدق من قال : "الحياة الحب والحب الحياة". والحب يكسب الوجود البشري اتجاها وقصدا وغاية، وأيضا يخلع عليه عمقا ومعنى وقيمة حقيقية، وهو لذلك آداة لخدمة الإنسانية وتطورها ورقيها لأنه القيمة الفعلية فى حياتنا اليومية.إذن، الحب هو شغل الإنسان الشاغل، وهو قسم مشترك للجميع حتى أصبح موضع الكلام والحوار والنقاش وحتى البحث الدقيق لدى الجماهير، عامتهم وخاصتهم من الأدباء والفلاسفة والمتكلمين والمتصوفة من قديم الزمان إلى يومنا الحالى حتى ما شاء الله. وهذه المقالة المتواضعة ستعالج- على الأقل- عن الحب فى الخطاب الأدبي والفلسفى والكلامي والتصوفى.

٢. الحب من الثقافة اليونانية إلى العربية

ولئن كان الخطاب الحبي فى الثقافة العربية وجد جذوره العريقة كما يتمثل فى الأشعار والقصص الجاهلية ونبغائها مثل أمرؤ القيس المعروف بـ "مجنون ليلى" وجميل بثينة وغيرهما، إلا أن الحديث عن الحب فى شكله النظري يعود تاريخه إلى القرن الثالث والرابع الهجريين مع تفتح الآفاق العقلية العربية إثر

شيوع الكتب اليونانية المترجمة إلى العربية بما فيها الكتب الأدبية. ولليونان، حسب تعبير أحمد أمين، فى هذه الأنواع كلها الشئ الكثير الذي أثر الأدب العربي قديمه وحديثه.[1] وخلال ذلك القرنين، برزت لدى مثقفي المجتمع أفكار جديدة وليونة نسبية فى التعامل مع هذا الموضوع، موضوع الحب.

ومما يدل على مدى عناية المثقفين المسلمين بموضوع الحب ودراسته وبالعشق وماهيته ما يروى أن فى ذلك القرن تقام المجالس والندوات لمناقشة وبحث هذه القضية. وقد حدثنا المسعودى عن مجلس فى قصر الوزير" يحي بن خالد" ضم اثنين وعشرين مفكرا مسلما شغلهم الحب وانشغلوا به فراحوا يناقشونه ويعرفونه ويحددونه. قال علي بن الهيثم من متكلمي الشيعة:" الحب غير محدود، وهو ثمرة المشاكلة بين المحب والمحبوب، ولا يكون إلا بامتزاج الشكلين، أو بازدواج النفسين، وهو دليل على تمازج الروحين".وقال هشام بن الحكم شيخ الإمامية :" الحب لايكون إلا من اعتدال الصورة وتكافؤ فى الطريقة وملائمة فى الهمة". وقال معمر بن سليمان المعتزلي "العشق هو نتيجة المشاكلة وغرس المشابهة". وقال إبراهيم بن سيار النظام شيخ المعتزلة :" الحب سحر والمحبوب هو الساحر والإفراط فيه يحطم الجسد"[2]

إلا أننا نلاحظ أن الكثيرين ممن أقدموا على الكتابة فى موضوع الحب هم من الفقهاء، خاصة الظاهرية والمتكلمين الحنابلة الذين عنوا عناية كبيرة

---

[1] أحمد أمين، *فجر الإسلام* (سنغافورة : مكتبة ومطبعة سليمان مرعى، ١٩٦٥)، ص. ١٣٥

[2] أنظر, سهير فضل الله أبو وافية، *الفلسفة الإنسانية فى الإسلام*، (القاهرة: دار النهضة العربية، دون سنة التصدير)، ص. ١٩٥-١٩٦.

بالحب البشري ودرسوه دراسة موسعة رغم هجومهم على الحب الإلهي. وكان أبرزهم محمد بن داود الظاهري (ت ٢٦٩هـ) صاحب كتاب "الزهرة" وهو فى موضوع الحب الإنساني، وابن حزم الظاهري (ت ٤٥٦ هـ) أيضا، صاحب كتاب "*طوق الحمامة*"، وجعفر السراج القارئ (ت ٥٠٠ هـ)، وابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ)، وابن قيم الجوزية (ت ٧٥١ هـ) صاحب كتاب "*روضة المحبين ونزهة المشتاقين*". واتضح من مؤلفات هؤلاء، كما حقق به وفا أحمد، تأثير الثقافة الإغريقية كما تتأثر أيضا بالثقافة الفارسية والهندية التى انصهرت قصصها ومواقفها فى بوتقة الثقافة الإسلامية[٣]

فقد شاعت فى القرن الثالث الهجري كتب تجمع أشعار الغزل وحكايات العشاق العذريين ومآسيهم، وأساطير أخرى عرفها العرب من الثقافات الأخرى وأفردت لها كتب أو رسائل صغيرة.[٤] لكن الحب أو الهوى العذري (الحب العذري وما يتعلق به يبحث فى الفصل الأخير من هذا البحث) المنزه عن شؤون العشق الجسدي كان له أصوله فى فلسفة أفلاطون. وقد ترجمت إلى العربية بعض محاوراته ملخصة، وعرفت عناوينها وموضوعاتها بشكل عام، ومنها محاورة فيدروس[٥] ومحاورة المأدبة[٦]. وكذلك ذكر محمد بن داود

---

[٣] أنظر، أحمد وفا، *الحب: من المادة إلى الروح*، مجلة أفكار، العدد: ٩٣ آب – ايلول، ١٩٨٩م.

[٣] أنظر Lois Anita, *Theori of Profan love among the Arabs*, (London : Londons University Press, 1972)pp. 1-end

[٤] أنظر Lois Anita, *Theori of Profan love among the Arabs*, (London : Londons University Press, 1972)pp. 1-end

[٥] أنظر: إبن النديم محمد بن اسحق، *الفهرست*، *تحقيق:* رضاتجدد، (طهران: مطبعة دانكشاه، دون سنة)،ص. ٣٦٦ تحت فصل"أسماء العشاق من سائر الناس" و"أسماء العشاق الذين تدخل أحاديثهم فى السمر".

الأصفهاني الظاهري، صاحب *"الزهرة"* بعض الأقوال والأساطير المتعلقة بأساس الحب، وهو" المشاكلة" ونسبها إلى بطليموس (Ptoleme) وجالينوس (Galen).[٧] للحب إذن قصص وأساطير وأفكار عرفها العرب من الثقافات الأجنبية.

٣. التعريف بالحب

قد أثار المفكرون العرب حول "الحب" (مادة حب) تساؤلات اختلفت فى الإجابة عليها المواقف ووجهات النظر. ومنهم من بذل جهده إلى التركيز على أصل هذا اللفظ خلال المعاجم العربية وفى مقدمتها لسان العرب لابن منظور كما فعل به أحمد وفا حتى وصل إلى أن "الحب" له ما يزيد على الستين ا سما، وأن له عدة معان أكثرها تتعلق بالأمور خارج النطاق العاطفي والروحي أو بعبارة أخرى تتعلق بالمواد الحسية والجسدية.[٨] أما ابن قيم الجوزية فقد عرض ووسع البحث عن أصل "المحبة" ومشتقاتها ومعانيها قبل أن يصل إلى حدها وتعريفها. وكما أنه أطال الكلام عن حد المحبة وتعريفها فيما لا يقل عن أربعة وعشرين حدا استخلصه من كلام الأخرين.[٩]

وعلى الرغم من الاختلاف بخصوص أصل لفظ الحب، (الجدل الصاعد

---

[٦] *المرجع نفسه*، ص. ٣٠٦ تحت عنوان "أفلاطون"

[٧] أحمد وفا، *الحب : من المادة إلى الروح*، مجلة أفكار، العدد: ٩٣، ١٩٨٩م.

[٨] المرجع نفسه.

[٩] أنظر : شمس الدين بن ابى بكر ابن قيم الجوزية (ونذكر فيما بعد ب"ابن قيم الجوزية") *روضة المحبين ونزهة المشتاقين* (بيروت : دار الكتاب العربي، ١٩٩٦) ط. ٣، ص. ٣٣-٧٠

[٩] *المرجع نفسه*.

حول أصل لفظ الحب لم نسرده فى هذه المقالة قصدا إلى الإيجاز) إلا أن جمهور اللغويين اتفقوا على أن هذا الشعور شئ مألوف وعام فى حياة البشر بغض النظر عن اختلاف الأزمنة وتباين الثقافات. إن اسم هذه العاطفة فقد اشتق من تسميات لها نوع صلة، أو مشابهة بتجربة الحب. وأما أصل لفظ الحب – كما استنتج به أحمد وفا[١٠] – فى بيئة العرب فقد يكون اشتقاقا من الجرة (مكان لاحتواء الماء) والبر والشعير وشجرة العشقة وحباب الماء إلى آخر ما توسم فيه أهل اللغة أصلا ونوع مشابهة. لكن الحق أن للحب متعلقات كثيرة، وأهمها مبدأ الانجذاب لما هو جميل والاحساس بالجمال وطلب اللذة. وقد طور الفكر هذه المتعلقات وسما بها فرفعها من مواضيع حسية إلى شؤون ترتبط بالروح. ومنذ تلك اللحظة التى يخرج فيها الحب إلى عالم التجريد والسمو عن الأشياء، ويخطى العلاقات والقيود وتجاوز الحدود، انطلقت الأحاديث عنه إلى الجدية والتفلسف به لا محض ترف وهذر وان كان الحب دا ئما لا يخلو من ذلك النوعين.

أما الدراسات العربية الإسلامية فى هذا المجال فنلاحظ أنها تتخذ اتجاهين: الأول يدرس من حيث أنه ظاهرة إنسانية تربط بين الذكر والأنثى. وهذا اتجاه المتأدبين وأكثر الفقهاء والمتكلمين. والثانى يعتبر هذا الحب فى مستواه البشري مرحلة أولى فى طريق المحبة الى الحب النهائي الإلهي، وهو نظرية المتصوفة فى الحب.

وبصدد الاتجاه الأول، قدم الجاحظ فى رسالته تعريفا للحب حاول من خلاله أن يثبت أن "الحب هو أصل الهوى، والهوى الذى يتفرع منه العشق،

---

[١٠] *المرجع نفسه.*

والعشق اسم لما فضل عن المقدار الذي اسمه حب"[11] فالعشق يتركب من الحب والهوى والمشاكلة والإلف، وله ابتداء فى المصاعدة ووقوف على الغاية، وهبوط فى التوليد إلى غاية الانحلال ووقف الملال[12]

أما ابن حزم رغم أنه ظاهري، فانه عمد إلى تعريف الحب كما كان الناس فى عصره (القرن الحادى عشر الميلادى) يعمدون إلى تعريف كل شئ. وعمد إلى تعريفه على النحو الفلسفى الذى ألفه أصحاب المنطق، فهو يثبت قبل كل شئ أن الحب حقيقة واقعة لا منصرف عنها ولا تخلص منها، وأنه من أجل ذلك شئ مباح لا ينكره الدين ولا العرف مادام لا يتجاوز حدود الدين والعرف. ثم يذكر بعد ذلك "مائية (ماهية) الحب". وماهية الحب عنده "الاتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع".[13] وهذا التعريف ظاهر على ألسنة الأدباء، مستعمل فى بيان الحكماء. وأما المتصوفة فلا نكاد نعثر على خطابهم الحيي التعريف المحدد عنه، وإنما أكثروا غالبا عن التعابير حول الحب. هذا، لأن الحب الصوفي يعلو ويفوق الحب الجسدي أو الحب العذري الذى يتمحور بين حب الناس بعضهم بعضا أو حب شخص وآخر، بينما كان حب الصوفية يتعلق بأسمى موضوع وهو الله تعالى.

ومن هنا يسمى حبهم أيضا بالحب الإلهي أو الحب الروحي، وهو الحالة الوجدانية التى تصدر عنها سائر الحالات الأخرى، وهو المحور الرئيسي

---

[11] أنظر : أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، *مجموعة الرسائل*، (بيروت : دار النهضة الحديثة، ١٩٧٢ م)" الرسالة السابعة فى العشق والنساء"، ص . ١٤٧-١٥١

[12] نفس المرجع، ج ٢، رسالة "القيان"، صز ١٦٦-١٦٧.

[13] أنظر : طه حسين، *ألوان*، ((مصر : دار المعارف، ١٩٠٨)، ص. ٩٩-١١٩.

الذى تدور حوله موضوعات التصوف. وليس الحب الإنساني عندهم الا طريقا إلى الحب أكثر بعدا وعمقا وهو ذلك الحب الإلهي.

ولهذا، وجدنا بعض الصوفية يعرفون الحب أو المحبة بقولهم: "المحبة لذة فى المخلوق واستهلاك فى الخالق على معنى أنك لا يبقي لك حظ، ولا يكون لمحبتك علة ولا تكون قائما بعلة"،[١٤] وأما ابن الصمد فيقول :"المحبة هي التى تعمى وتصم، تعمى عما سوى المحبوب فلا يشهد سواه مطلوبا"[١٥] ويقول أبي القاسم النصراباذى: "المحبة مجانبة السلو على كل حال" ويقول أيضا أبي الحسين النورى : " المحبة هتك الأستار وكشف الأسرار"[١٦]

ومن هؤلاء الذين يرون أن المحبة الإنسانية جسر وبرزخ للحب الإلهي ابن الدباغ (ت ٦٩٧ هـ) الذى أكد أن الحب الجسدي أو اللذة بالمحسوس له الأسبقية على الحب الروحاني"[١٧] فجدلية الحب عنده تأخذ بعدين: بعد الحب الجسدي حيث تتحول المحبة إلى "حمرة خجل أو صفرة وجل، أو استحالة الدم إلى مني عند تصور لذة الوقاع"، وبعد الحب الإلهي حيث تتحول المحبة إلى "لذة وقهر وابتهاج وطرب وإغماء"[١٨]

---

[١٤] أنظر: عبد الفتاح السيد محمد الدماصى، *الحب الإلهي فى شعر محي الدين بن عربي*، (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٢)، ص. ٦١

[١٥] *المرجع نفسه*.

[١٦] *المرجع نفسه*، ص. ٦٢

[١٧] عبد الرحمن ابن الدباغ، *مشارق أنوار القلوب ومفاتيح اسرار الغيوب*، تحقيق ريتر، (بيروت : دار صادر، ١٩٠٩)، ص . ٥.

[١٨] *المرجع نفسه*، ص . ٢٢

٤. الحب فى الخطاب الفلسفي

كما قد سردنا فى الفصل الثاني من هذه المقالة أن الحديث الحبي الجدي فى الثقافة العربية متأثر –قليلا أو كثيرا – بالثقافة اليونانية. لذا، أرى ضرورة إعادة النظر للفكرة الفلسفية فى الحب فى التراث اليوناني ليتمكن من الوصول الى البحث فى نفس الفكرة فى التراث العربي.

إن الخطاب الحبي فى التراث اليوناني له صلة بفكرة "الخلق" أى خلق العالم الموجود. وذلك لأن الفلاسفة الأوائل كانوا يبحثون عن المبادئ الأولى للأشياء فى طبيعة المادة. منهم من يقول أن أول شيئ هو الماء كما قال به طاليس (Thales)، ومن قال إن "النوس" أو العقل هو علة الجمال والخير فى الوجود كما أنه علة الحركة فى الموجودات، وهذا رأي انكساجوراس (Anaxagoras). ومنهم أيضا من قال إن الحب أو الرغبة هو مبدأ الأشياء. ومن الممكن –كما قال أرسطو (Aritoteles)– أن هزيود هو أول من ذهب بهذا المذهب ثم تبعه بعد ذلك برمنيدس (Parmanides) حين جاء فى قصيدته أن أفروديت (Aphrodito) خلقت الحب، وهو أول الآلهة.[١٩]

معنى ذلك أن الحب هو الذى يمنح الأشياء الحركة والنظام. وتلك هي العقلية الإغريقية التى رأت الوجود حبا وجمالا. ومن الفلاسفة من يقول بمبدأ الوجود : الحب والكراهية (إمبادوقليدس – Empedokles)، فالحب هو مبدأ الخير والكراهية هي مبدأ الشر، وفضلا عن ذلك ، فالحب يوجد والكراهية

---

[١٩] أنظر : الشيخ كامل محمد محمد عويضة، *حصاد الفكر الفلسفي اليوناني* (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥)، ص. ١٣٤-١٣٥

تغرق.[٢٠] أما ديموقريطس (Demokritos) ولوقيبوس (Leukippos) فيعتقدان أن الوجود واللاوجود، الملاء والخلاء، هما مبدأ الأشياء. وخلاصة القول، كان الكون فى نظر الإغريق الأسطوري والمثلي فاتنا ساحرا، أصله الحب، وصورته الجمال، بل يري أفلاطون أن الحب (ايروس/eros) هو أصل كل ما هو خير فى هذا الوجود.[٢١]

صحيح أن أرسطو كان له الفضل فى تخليص الفكر الإغريقي، بل والفكر الإنساني كله من الأسطورة، كما أنه جعل البحث الفلسفي مقرونا بالبحث عن العلل والمبادئ، وكما أنه أيضا يجعل من المنطق أداة للعلم وطريقا موصلا إلى الحقيقة، ولكنه ومع ذلك فإنه-كما قال عويضة- يذكر أن العالم يتحرك شوقا إلى الله.[٢٢] وهذا "الشوق" الذى يدفع المادة أو الأفلاك إلى الاتصال بالصورة الخالصة أى الله بواسطة عقول الأفلاك. فالرغبة والشوق والحب كلها مبادئ مسلم بها فى الفكر الإغريقي. فالرغبة تحرك النفس، والشوق يحرك المادة، والحب يحرك العقل.

وليس من الصدفة اذا وجدنا بعض المفكرين المسلمين فى نظر خلق العالم يسلك الطريقة أكثر شبها بتلك الفكرة الإغريقية من حيث المنهج. هذا العلامة شمس الدين محمد بن ابى بكر ابن قيم الجوزية (٦٩١-٧٥١هـ) مثلا فى كتابه "*روضة المحبين ونزهة المشتاقين*" قد أفرد بابا خاصا يبحث فيه العلاقة بين الحب

---

[٢٠] *المرجع نفسه*. ص. ١٣٥

[٢١] *المرجع نفسه*.

[٢٢] الشيخ كامل محمد محمد عويضة، *الفلسفة الإسلامية*، (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٥) ص.٥

ووجود العالم، وهو "الباب الرابع : فى أن العالم العلوي والسفلي إنما وجد بالمحبة ولأجلها وإن حركات الأفلاك والشمس والقمر والنجوم وحركات الملائكة والحيوانات وحركة كل متحرك إنما وجدت بسبب الحب".[٢٣]

وابتدأ ابن القيم فى هذا الباب بتقسيم الحركات، وهي عنده ثلاثة أنواع: حركة إرادية وحركة طبيعية ثم حركة قسرية (القهرية اللاإرادية). إن المتحرك إن تحرك بإرادته فحركته إرادية، وإن تحرك بغير إرادته فإما أن تكون حركته إلى نحو مركزه أولا، فإن تحرك إلى جهة مركزه فحركته طبيعية، وإن تحرك إلى غير جهة مركزه فحركته قسرية. ثم أتى بعد ذلك ببيان تفاصيل هذه الحركات حتى انتهى إلى القول الذى مؤداه أن تلك الحركات إنما تتحرك بمحركها، فالمحرك –عند ابن القيم–هو الملائكة الموكلون بها (وهم المحركون الثانى) بأمر من الله الذى هو المحرك الأول. والملائكة حينما يفعلون ما أمرهم الله إنما يفعلونه محبة وطاعة بأمره وإرادته. وكذلك كانت جميع الحركات الفلكية وما حوته تابعة للحركة الإرادية المستلزمة للمحبة، فالمحبة والإرادة أصل كل فعل ومبداه، فلا يكون الفعل إلا عن محبة وإرادة.[٢٤]

وواضح من البيان المذكور أن هناك اتفاق بين الفكرتين (الإغريقي وابن القيم) من أن الحب له دور كبير فى فكرة الخلق بالرغم من وجود الاختلاف بينهما من حيث العلة.فالفكرة الإغريقية الأفلاطونية رأت أن الحب نفسه هو الذى يخلق العالم لأنه من الآلهة، أو أنه محرك العقل لإيجاد العالم كما ذهب إليه

---

[٢٣] انظر: ابن قيم الجوزية *روضة المحبين ونزهة المشتاقين*، ص. ٧٣

[٢٤] انظر، *المرجع نفسه*. ص. ٧٣-٧٦

أرسطو، أما ابن القيم فإنه يعتبر أن الحب هو الأساس لخلق الكون، والخالق والمدبر هو الله بتحريك رسله من الملائكة الموكلين. ومع ذلك، فإن تلك الفكرتين تتفقان على أن الحب هو أصل كل فعل ومبداه وأصل كل ما هو خير فى هذا الوجود.

هذه من جهة، وهناك فكرة تعتبر كجهة أخرى جذبت عقول عدد كبير من المفكرين العرب وهي "إشكالية المشاكلة". وقد زعمت هذه النظرية ارتباط مصائر البشر بتأثيرات الأفلاك والنجوم والكواكب، بحيث تتدخل هذه فى ايقاع المحبة أو الكراهية بين الأشخاص، وهذه الفرضية –كما يقول أحمد وفا[٢٥]– تعود فى بدايتها لبطليموس (Ptoleme). وقد وجدها الذى عاش فى الإسكندرية فى القرن الثاني بعد المسيح، فخرت أهم الإشكالات فى قضية الحب: وهي إشكالية إنسانية الحب أو إلهية، فانقسمت الآراء لدى الإسلاميين إلى إتجاهين: (١) القائلون بأن الحب قضية إنسانية مركبة فى الطباع البشرية انسجاما واتفاقا ونفورا وكراهية. وهذه النظرية عرفت بنظرية المشاكلة، وهي ذات أبعاد أفلاطونية (Platonism)، (ب) القائلون بأن الحب منة إلهية هيأها الله فى سلسلة من التراتيب والنظم التى تتدخل فيها الأقلاك والكواكب فى تحديد خيرية وشرية الإنسان، وتتحكم فى محبة الناس وكراهيتهم، وتعود هذه النظرية فى جذورها إلى بطليموس واينيذوقلس[٢٦]

---

[٢٥] وفا أحمد، نفس المرجع، ص. ٥١

[٢٦] أنظر : يوسف كرم، *تاريخ الفلسفة اليونانية* (القاهرة : لجنة التأليف والنشر، ١٩٣٦)، ص. ٣٦، ٩٨.

ومن هؤلاء الفلاسفة المسلمين الذين تأثروا بالفكرة الأفلاطونية إخوان الصفا، وهم يرون أن العلة فى محبة شخص لشخص آخر اتفاق مشاكلة الأشخاص الفلكية فى أصل مولدهما بضرب من الضروب الموافقة من بعض لبعض، فهي كثيرة الفنون. فمنها أن يكون مولدهما ببرج واحد أو رب البرجين كوكب واحد، أو يكون البرجان متفقين فى بعض المثاني كالمثلث، أوتكون مطالعهما متساوية، أو ساعات نهارهما متفقة، وما شاكل ذلك.[٢٧]

وقد توسم بعضهم لهذه النظرية دعما فى الحديث النبوي الشريف: "الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف". وتصدى بعض المفكرين مثل ابن قيم الجوزية –كما قد ذكرنا جزأ من أفكاره من قبل– وابن حزم لبحث نظرية المشاكلة من جديد. ورفض بعضهم تفصيلات معينة فى هذه النظرية ومنها تأثير النجوم والكواكب فى فرض التشاكلات على المجتمع الإنساني، فوضع ،مثلا، ابن سينا والفارابي وابن حزم رسائل فى نقض أصول هذه الفرضية.[٢٨]

نعم، إن ابن حزم رفض هذه الفكرة ذات الأفلاطونية النزعة، ولكنه مع هذا، يقول أن مائية (ماهية) الحب هو "الاتصال بين أجزاء النفوس المقسومة فى هذه الخليقة فى أصل عنصرها الرفيع". وكان بذلك –كما قال طه حسين–

---

[٢٧] إخوان الصفا وخلان الوفا، *رسائل*، (بيروت: دار صادر، ١٩٥٧)، جز ٣، الرسالة السادسة فى ماهية العشق، ص. ٢٧٥.

[٢٨] أنظر: الفارابي، "ما يصح ومالا يصح من أحكام النجوم"، *رسالتان فلسفيتان*، تحقيق: جعفر آل ياسين، (بيروت: دار المناهل، ١٩٨٧). وابن سينا، فى أبطال أحكام النجوم"، *الرسائل*، وابن حزم، مراتب العلوم، *الرسائل*، جز ٤، تحقيق: عباس إحسان (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٨٣).

يذهب إلى ما ذهب إليه بعض الفلاسفة من قدماء اليونان من أن هناك عنصرا رفيعا تأتلف منه نفس واحدة قد قسمت أجزاؤها على المخلوقات ذوات النفوس. فقد يحدث اتصال بين هذه الأجزاء المقسمة بين الناس فيكون الحب، وقد يحدث انفصال فيكون البغض. وبمقدار ما يكون الاتصال قويا أو ضعيفا يقوي الحب أو يضعف، وبمقدار ما يكون الانفصال قويا أو ضعيفا يشتد البغض أو يلين.[٢٩]

٥. الحب فى الخطاب الكلامي

فقد أثبت التاريخ أن العلماء المسلمين فى العصور الوسطى وما يليها هم النحاة والأدباء والفقهاء والمتصوفة، كما أنهم أيضا الفلاسفة والمناطقة والمتكلمون فى نفس الوقت كما وجدنا فى شخص ابن الرشد والغزالي وابن سينا وابن حزم وغيرهم. فليس غريبا اذا كان الأمر الواحد يبحثه العلماء من شتى النواحى. فلنأخذ- على سبيل المثال- قضية الحب أو المحبة فى ساحة الفكرة الإسلامية لايدور البحث فيها من ناحية فلسفية فحسب، بل أصبحت أيضا فضية كلامية. فقد أثارت انسانية الحب وارتباطه بالأنا تساؤلات حول جبرية الحب أو اختياريته، هل هو اختياري أو جبري خارج عن مقدور البشر؟

فالقائلون بجبرية الحب واضطراريته يقولون بالجبر والحتمية فى حياة الإنسان، وهو بمنزلة محبة الظمآن للماء البارد، والجائع للطعام، وهذا مما لا يملك. والقائلون باختيارية الحب يدافعون عن حرية الإنسان فى تحديد مصيره،

[٢٩] أنظر: طه حسين، *ألوان*، ص. ١٠٧

مما يلزمهم بالقول بالكبت ومدافعة طارئ المحبة[٣٠] ورأى بعضهم أن الجبر والاختيار معيار للتمييز بين المحبة والعشق. فالمحبة تعنى الاختيار، والعشق يعنى الجبر. ولهذا، عرفت المحبة لديهم بالإرادة، فألزم المحب بالاختيار.

أما لسان الدين بن الخطيب –كما نقلنا عن وفا أحمد– فقد صرح بتساؤلات محيرة فى هذا الصدد، فقال : "هل تكتسب المحبة أو تدخل تحت الاختيار، أم هو أمر يطرق الإنسان على سبيل الضرورة التى لا اختيار فيها كالخجال والحياء..."[٣١] وعندما يربط ابن الخطيب المحبة بعوامل خارجة عن معرفة الإنسان كالمناسبة والجمال، فإنها تقع فى الجبر. وهذا ما عناه عندما قال إن المحبة فى الكائنات جبرية كحنين الحيوان إلى بعضه وانجذاب المغناطيس للمعدن[٣٢] لكن عندما يربطها بالعقل الإنسانى وقدراته التى تربط بالأسباب والنتائج يدرك أن ذلك يتطلب اختيارية المحبة، وخاصة فيما للعقل عليه اشراف، والتى فى الغالب هى سعي نحو إكمال النقص الخاص بالإنسان بمحبة كمال البقاء، ومنها محبة الهداة والعلماء والأنبياء.[٣٣] وابن الخطيب بذلك يجارى ابن سينا الذى جعل عشق الحجر إلى موضعه قسريا (اللا إرادى)، أما عشق الحيوان إلى التوليد بما هيأه الله من آلات موافقة فى المعشوق فهو عشق اختيارى.[٣٤]

---

[٣٠] أنظر: فهمى جدعان، *داعى المشاكلة فى نظرية الحب عند العرب*، (بيروت: مطبعة الجامعة الأمريكية، ١٩٨١)، ص. ١٠٢

[٣١] أنظر: وفا أحمد، *نفس المرجع*، ص. ٥٠

[٣٢] *المرجع نفسه*.

[٣٣] *المرجع نفسه*.

[٣٤] *المرجع نفسه*.

إن الخلاف حول اختيارية الحب أو جبريته فى الخطاب الكلامى هـذا، أدى بالتالى إلى اختلاف آخر، وهو : هل يستحق المحب العقاب أو الثواب بما يتولد منه من الأفعال أم لا؟ ولفصل النزاع بين الفريقين، يرى الكاتب ضرورة نقل رأى ابن قيم الجوزية فى هذا الصدد، حيث قال: "أن مبادئ العشق وأسبابه اختيارية داخلة تحت التكليف، فإن النظر والتفكر والتعرض للمحبة أمر اختيارى، فإذا أتى بالأسباب كان ترتب المسبب عليها بغير اختياره كما قيل :

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقل به لم يطق
رأى لجة ظنها موجة فلما تمكن منها غرق
تمنى الإفاقة من ذنبه فلم يستطعها و لم يستطق

وهذا بمنزلة السكر من شرب الخمر، فإن تناول المسكر اختياري وما يتولد عنه السكر اضطرارى، فمتى كان السبب محظورا، لم يكن السكران معذورا. ولا ريب أن متابعة النظر واستدامة الفكر بمنزلة شرب امرأته أو جاريته ثم فارقها وبقى عشقها غير مفارق له، فهذا لا يلام على ذلك".[٣٥]

هكذا يقول المتكلمون، وهم لا ينظرون إلى كل شيئ من الأمور الإنسانية إلا ويربطونها بالمسائل الدينية أو العقيدية وما يترتب منها من العقاب والثواب، أو الحسن والقبح، أو الذم والثناء. والكلام فى الجبر والاختيار هو من كلام المتكلمين فى شتى الأمور فيما بينها قضية الحب التى لا يخلو من هذا المنظر

[٣٥] ابن قيم الجوزية، *نفس المرجع*، ص. ١٥٩-١٦٠

الكلامى، فلننتقل الآن إلى الصوفية فى نظرهم إلى الحب.

٦. الحب فى الخطاب التصوفى

إن المنهج الذى يسلكه المتصوف للحصول على المعرفة أو طريقها يختلف اختلافا عما يسلكه الفيلسوف أو المتكلم, فإذا كانت الفلسفة أو الكلام عقلي الطابع فالتصرف وجدانى النزعة، وقد يعمد بعض المتصوفة الى التعبير عن حالاتهم الوجدانية الخاصة بطريق الرمز، فتغلب على عباراتهم صيغة الإبهام والتعقيد، كما تكون اللغة أداة عاجزة عن التعبير عن الوجدانيات تعبيرا صادقا، وقد يحدث أحيانا أن يختلف اثنان من المتصرفة فى التعبير عن حالة وجدانية معينة اختلافا لفظيا. ويلاحظ أن عبارات المتصرفة تحتمل عادة معنين أحدهما لغوى ظاهر، وهو ما يستفاد من ظاهر الألفاظ، والآخر ذوقى باطن، وهو ما يستفاد بواسطة التحليل والتعمق.

هذا هو الحب الصوفى أو الحب الروحى أو الحب الإلهى، يتشعب فيه كلام ويطول فيه بحث فى طيات الكتب قديمة كانت أو حديثة، تحاول كلها على تصوير هذ الحب مهما ضعفت رسم حقيقته والعثور على كنهه لاختلاف الصوفية بعضهم بعضا فى تعبيرهم عن حبهم الإلهى. وكذلك اختلفت آراء الباحثين فى هذا الحب، بعضهم يقول : أن الحب الصوفى هو الحالة الوجدانية التى تصدر عنها سائر الحالات الأخرى. هذا لمن يرى "أن التصوف هو سلسلة

متصلة الحلقات من الحالات الوجدانية الخاصة كابى الوفا التفتازانى".[٣٦] وهـذا التعريف من التصوف هو الذى تعتمد عليه هذه المقالة.

وهذا الحب عنده عاطفة تمر بمراحل مختلفة متصلة قبله كالقلق النفسى والحزن العميق والخوف من أشياء مجهولة ومحاولة استكناه الكون وكشف المحجوب وغيرها، ثم يعانى المتصوف بعد ذلك، الحب الإلهى أو العشق الصوفى.[٣٧] والحب الإلهى أيضا هو أرفع المثل الروحية لأنه يتعلق بأسمى موضوع وهو الله تعالى، وليس هذا الحب شطحا ولا عبثا وإنما هو ثمرة حقيقة الإيمان القوى والتدين العميق، وينعكس أثره على حياة الفرد تهذيبا، وعلى حياة المجتمع ارتقاء. والحب الصوفى يتخذ عدة مظاهر تختلف قوة وضعفا، كما أن العاطفة الصوفية تتطور أحيانا بحيث يشعر المتصوف بأنه عاشق ومعشوق فى آن واحد.

واعتبرت رابعة العدوية أول من هتف فى رياض الصوفية بنغمات الحب شعرا ونثرا، وعرفت أنها أيضا من فضلاء عصرها وأزكاهم فطرة وأسماهم نفسا وأشدهم عزوفا عن الدنيا وزخارفها حتى يكون انقطاعها إلى الله قد وجه نفسها الشاعرة وجهة حب إلهى فغنت بأناشيدها فى مثل قولها[٣٨] :

أحبك حبين حب الهوى　　وحبا لأنك أهل لذاك

وأما الذى هو حب الهوى　　فشغلى بذكرك عمن سواك

---

[٣٦] أنظر: أبو الوفا الغنيمي التفتازانى، *دراسات فى الفلسفةالإسلامية*، (القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٥٧)، ط.١، ص. ١٢٩-١٣٠

[٣٧] *المرجع نفسه*، ص. ١٤٦

[٣٨] أنظر: لويس ماسينيون ومصطفى عبد الرازق، *الإسلام والتصوف*، (القاهرة: مطبعة دار الشعب، ١٩٧٩)، ص. ٧٦

وأما الذى أنت أهل له فكشفك للحجب حتى أراك

فلا الحمد فى ذا ولاذاك لى ولكن لك الحمد فى ذا وذاك

ثم يأتى بعد رابعة الصوفية أو المتصوفة الآخرون يعبرون عن مشاعرهم الحبية الإلهية بشتى التعبيرات، ويرتبها فى الحالات أو المقامات تختلف بعضها بعضا من حيث الترتيب. فأبو الحسن الشاذلى، مثلا، يرتب المحبة فى المقام أو الطريق السابع عشر أو الطريق الأخير من الطرق أو المقامات التى أولها الإخلاص، التوبة، النية، القصد، الخلوة، الجهاد، النفس، الدنيا، العبودية، الطاعة، درجات درجات، الذكر، الورع، الزهد، التوكل، الرضا ثم المحبة.[٣٩]

وأما عند محي الدين ابن عربى فيرى أن حب الله ينبغى أن يكون ثمرة ممارسة أعلى الفضائل الأخلاقية وأن يكون الغاية القصوى لكل المقامات العالية. وأولى هذه الفضائل إتباع الرسول لأنه نموذج لكل كمال، ثم التوبة، وطهارة القلب، ثم يأتى بعد ذلك الصبر فى البلاء والشكر على النعم الإلهية، فهاتان درجتان للصعود إلى الحب.[٤٠] ويرى السهروردى أن المحبة حال ومقام فى آن واحد.

والمهم أن نلاحظ أن بعض الصوفية يعتبرون الحب الإلهى موصلا إلى المعرفة، والبعض الآخر يرى أنه هو نتيجة للمعرفة. والحق أن يقال أن الحب والشوق إلى الله يدفعان بالمتصوف إلى التعرف على الله، كما أن المعرفة بالله عز

---

[٣٩] أنظر تفاصيل هذه الطرق، عبد الحليم محمود، *المدرسة الشاذلية الحديثة وإمامها وأبو الحسن الشاذلى*، (القاهرة: دار الكتب الحديثة، دون سنة التصدير)، ص. ١٢٨-١٤٢

[٤٠] طلعت غنام، *أضواء على التصوف: دراسة موضوعية، تحليل ونقد من وجهة النظر الإسلامية والفكرية*، (القاهرة: عالم الكتب، دون سنة التصدير)، ص. ٣٢٥

وجل تزيد من شدة الحب وقوته، فالحب سابق ولا حق بالنسبة إلى المعرفة.

وباختلاف مكانة الحب الإلهى عند الصوفية بين الحال والمقام وتراتيبها، وبالتالى يختلف أيضا تعبيراتهم فى تحديد هذ الحب، فها هى بعض تلك التعبيرات نمثله فى هذا الصدد: قال الشيخ أبو الحسن الشاذلى : "المحبة آخذة من الله لقلب عبده عن كل شيئ سواه، فترى النفس مائلة لطاعته والعقل متحصنا بمعرفته، والروح مأخوذة فى حضرته، والسر معمورا فى مشاهدته... ".[٤١] وقال أبو عبد الله النباجى: "المحبة لذة فى المخلوق واستهلاك فى الخالق على معنى أن لا يبقى لك حظ ولا يكون لمحبتك علة ولا تكون قائما بعلة" وقول أبى القاسم النصر أباذى : "المحبة السلو عن كل حال" وقول أبى الحسن النورى: "المحبة هتك الأستار وكشف الأسرار".[٤٢]

ويرى ابن عربى أن محبة الله لا تتحقق إلا إذا وهبت كلك لمن أحببت بحيث لا يبقى لك منك شيئ، ولن يتحقق ذلك إلا بعد سلامة القلب من جميع كدورات النفس، فإذا استقرت محبة الله فى القلب خرجت محبة غيره، لأن المحبة صفة محرقة تحرق كل شيئ ليس من جنسها[٤٣] وكذلك الشاذلى يقول : "من أحب الله وأحب لله فقد تمت ولايته بالحب، والمحب على الحقيقة من لا سلطان على قلبه لغير محبوبه، ولا مشيئة غير مشيئته".[٤٤]

---

[٤١] عبد الحليم محمود، *المدرسة الشاذلية الحديثة*، ص. ١٤٤

[٤٢] أنظر تفاصيل معانى المحبة الإلهية إلى: عبد الفتاح السيد محمد الدماصى، *الحب الإلهى فى شعر محى الدين ابن عربى* (القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، ١٩٨٣)، ص. ٦١-٦٣

[٤٣] *المصدر نفسه*، ص. ٦٢

[٤٤] عبد الحليم محمود، *المدرسة الشاذلية الحديثة*، ص. ١٤٢

ودعا جلال الدين الرومى إلى هذا الحب دعوة سافرة وذكر عجائبه وتصرفاته فى بسط وتفصيل فيقول: "إن الحب يحول المر حلوا، والتراب تبرا، والكدر صفاء، والسجن روضة، والسقم نعمة، والقهر رحمة، وهو الذى يلين الحديد، ويذيب الحجر، ويبعث الميت وينفخ فيه الحياة ويسود العبد. إن هذا الحب هو الجناح الذى يطير به الإنسان المادي الثقيل فى الأجواء، ويصل من السمك إلى السماك، ومن الثرى إلى الثريا".[٤٥]

بل لقد غلب على ابن الفارض —سلطان العاشقين- الحب الإلهى إلى الحد الذى اعتبره مرادفا للحياة، إذ لا حياة بدونه، كما أن الموت به هو عين الحياة كما أشار به فى شعره:[٤٦]

إن الغرام هو الحياة فمت به صبا فحقك أن تموت وتعذرا
وان شئت أن تحيا سعيدا فمت به شهيدا والا فالغرام له أهل
فمن لم يمت فى حبه لم يعش به ودون اجتناء النحل ما جنت النحل

وعلى الجملة، فالحب الإلهى أو الحب الصوفى هو الحب الذى لا يعرف حد النهاية، فهو بحر لا ساحل له، وطريق لا ينتهى مسلكه، وعين ثرى لا تطفئ الظمأ حيث أن تجليات الحق قد لا ترتوى بها عارف ولا يشبع منها مشتاق. ومن هذا، يختلف هذا الحب الوفى عن الحب غيره المعروف بالحب الجسدى وحتى بالحب العذرى. وكل من هذين الحبين قد ينطفئ بالوصول وينتهى

---

[٤٥] أبو الحسن الندوى، *مولانا جلال الدين الرومى*، (القاهرة: المختار الإسلام للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧٤)،ص. ٤٨-٤٩

[٤٦] أبو الوفا التفتازانى: "ابن الفارض سلطان العاشقين" فى المجلة *روايات الهلال*، العدد ٢٧١، يوليو ١٩٧١م – جمادى الأولى ١٣٩١هـ

بتحقق المراد، ومن ثم تهدأ النفس بعد أن تضيع جذوتها المشتعلة.

وفى هذا الصدد، يقول أبو القاسم القشيرى: "من الأحوال السنية فى المحبة الشوق، ولا يكون المحب إلا مشتاقا أبدا، لأن الحق ى نهاية له، فما من حال يبلغها المحب إلا ويعلم أن وراء ذلك أوفى منها وأتم، ثم قال، هذا الشوق الجاذب عنده ليس كسبة، وإنما هو موهبة خص الله بها المحبين".[٤٧]

٧. الحب فى الخطاب الأدبى

ومما لا شك أن موضوع الحب فى المجال الأدبى وفنه كله فيما فيها الأدب العربى أكثر موضوع حديثا وبحثا وحتى لا نرى أن العمل الأدبى قديمه وحديثه، شعره ونثره إلا والحب يحتل جزأ لا يتجزأ منه. فالحب فى العمل الأدبى ليس لهوا ولا عبثا ولا مجونا، بل جزء من صورة الحياة الواقعية. فالدكتور طه حسين لخير الباحثين فى رسم هذه الصورة حين يقول: "وقد مضى فى تاريخنا الأدبى والعقلى عصر لم يكن الحب هزلا ولا دعابة، وإنما كان جدا خالصا لا يخلو من صرامة وحزم فى كثير من الأحيان (...) وإن حب الغزالين لم يكن لهوا ولا مجونا ولا مصدرا للدعابة والفكاهة، وإنما كان جزءا من جد الحياة اقتضته ظروف من السياسة والدين".[٤٨]

وكذلك إن أحاديث الحب لا تقتصر على لسان الشعراء والأدباء، بل

---

[٤٧] عبد الفتاح السيد محمد الدماصى، *الحب الإلهى*، ص. ٤٣٩

[٤٨] أنظر، طه حسين، *ألوان*، ص. ٩٩-١٠٠

يتعدى أيضا إلى العلماء. وعبد الرحمن بن أبي عمار الجشمي مثلا، صاحب قراءة القرآن ورواية للحديث وإقبال للنسك والزهد وتفرغ للعبادة والطاعة حتى لقبه أهل مكة بالقس فلم يمنعه ذلك –حين رأى سلامة وسمع غناءها– أن يحبها حبا انتهى به إلى الهيام وجعله شاعرا غزلا كغيره من الشعراء الغزليين. و لم يجد ذلك حرجا ولا جناحا، لأن ذلك لم يور طه فى إثم ولا فسوق. وعبد الرحمن بن أبي عمار القس هو الذى يقول فى "سلامة" (عشيقته) هذين البيتين الرائعين:[٤٩]

سلام هل لى منكم ناصر　　أم هل لقلى عنكم زاجر
قد سمع الناس بوجدى بكم　　فمنهم اللائم والعاذر

وإذا كانت اليونان لها ميزتها بنظرية الحب المعروف بالحب الأفلاطونى أو الحب الدال على الهوى (Erose) كما قد ذكرناه فى الفصل السابق، فللعرب أيضا نظريتها الخاصة للحب أو الغزل، خاصة الغزل الذى انتشر منذ أيام بنى أمية. وفى هذا العصر، حسب تقسيم طه حسين، ثلاثة أنواع من الغزل أو الحب: غزل أو حب العذريين، الذين كانوا يتغنون فى شعرهم هذا الحب الأفلاطونى العنيف، والثانى غزل الإباحيين (المحققين) الذين كانوا يتغنون الحب ولذاته العملية كما يفهمها الناس جميعا. والثالث، الغزل العادى الذى ليس هو فى حقيقة الأمر إلا استمرار للغزل القديم المألوف أيام الجاهليين. والحب من النوع الأول والثانى لا يوجدان إلا فى الحجاز وما يليه من البلاد العربية الخالصة،

[٤٩] *المصدر نفسه.*

كما لا يوجد فى العراق والشام –وهما الإقليمان اللذان كانا مجتمع الحياة السياسية الأموية– إلا نوعين من الشعر: أحدهما الشعر العادى من مدح وهجاء ووصف، والثانى الشعر السياسى الذى تتناضل فيه الأحزاب.[٥٠]

ومن تلك الأنواع الثلاثة من أنواع الحب المذكورة، يركز هذا البحث على الحب العذرى مع ملاحظة قدر ممكن من نوع الحب غيره، لأننا نرى أنه هو الذى أكثر الكتاب من الأدباء من بحث هذا النوع من الحب، وأن له أيضا ميزته الخاصة من بحث النوع وأصحابه. وللحصول على معرفة حقيقة هذا الحب يجدر بنا إلى ذكر ما بينه الدكتور زكى مبارك عما يتعلق بهذا الحب، وهو يعرف بأن الحب العذرى"هو حب خالص من شوائب الدنس والرجس، هو حب طاهر شريف لا يعرف مخزيات المآثم ولا مندیات الأهواء"[٥١] أو أنه "حب نقى طاهر ممعن فى النقاء والطهارة".[٥٢] وبقول آخر، إن الحب العذرى هو حب حقيقى لا يصحبه معه أفعال غير شرعية أو تحلل من الخلق الفاضل.

وكان هذا الحب منسوبا إلى بنى عذرة، إحدى قبائل قضاعة التى كانت تنزل فى وادى القرى شمالى الحجاز، لأن شعرائها أكثروا من التغنى به ونظمه. ويرى أن سائلا سأل رجلا من هذه القبيلة: ممن أنت؟ قال: من قوم إذا عشقوا ماتوا. ويرى أيضا أن سائلا سأل عروة بن حزام العذرى، صاحب عفراء (عشيقته): أ صحيح ما يرى عنكم من أنكم أرق الناس قلوبا؟ فأجابه: نعم،

---

[٥٠] طه حسين، *حديث الأربعاء*، (القاهرة: دار المعارف بمصر، دون سنة التصدير)، الجزء ١، ص. ١٨٧

[٥١] زكى مبارك، *العشاق الثلاثة*، (القاهرة: دار المعارف، دون سنة التصدير)، ص. ١٥

[٥٢] شوقى ضيف، *تاريخ الأدب العربى: العصر الإسلامى* (مصر: دار المعارف بمصر، دون سنة التصدير)، ص. ٣٥٩

والله لقد تركت ثلاثين شابا قد خامرهم الموت وما لهم داء إلا الحب.[٥٣]

ثم أصبح بعد ذلك أن كل حب أو عشق وهيام الذى لا تصحبه الأعمال الرذيلة غير الشرعية ولا تحلل من الخلق الفاضل يسمى ويعرف بـ "الحب العذرى". وكان أكثر العشاق العذريين من أهل القرى والبوادى الذين لم يعرفوا الحب الحضرى المترف ولا الحب الذى تدفع إليه الغرائز، وقد كانت بدواتهم وتدينهم بالإسلام الحنيف تعصمهم من مثل هذين اللونين من الحب. وكانوا إنما يعرفوا الحب العفيف السامى الذى يصلى المحب بناره ويستقر بين أحشائه، حتى ليصبح هذا الحب كأنه محنة أو داء لا يستطيع التخلص منه ولا الانصراف عنه.

وقد وجد هذا الحب العذرى فى العصر الأموى، ولم تقف موجة الحب العذرى لهذا العصر عند بنى عذرة وحدها، فقد شاع فى بوادى نجد والحجاز وخاصة بين بنى عامر. ورغم من الاختلاف من حيث شخصيات العشاق أو المحبين العذريين بين الأشخاص التاريخية الحقيقية والأشخاص الرموزية الخيالية من صنع الرواة، إلا أن هذا الاختلاف لا يقلل من أهمية هذه الظاهرة الصحيحة التى حدثت أثناء المجتمع العربى فى القرون الماضية. أو كما قال زكى مبلوك: إن الحب العذرى حقيقة من الحقائق وليس فرضا من الفروض. ولا يرتاب فى الحب العذرى إلا الذين ضاقت منادح أهوائهم فلم يجروا إلا فى ميدان الحسن المبذول، وأولئك قوم يمشون فى دنيا الحب مشى المقيد فى الوحل، فلا يتعالون إلى فكرة

---

[٥٣] *المصدر نفسه.*

سامية ولا يسامون إلى مقصد رفيع".[٥٤]

ومن العشاق العذريين المشهورين والتاريخيين جميل بن معمر، وكثير بن عبد الرحمن، والعباس بن الأحنف. وكانوا من أقطاب الغزل فى شباب العصر الإسلامى، ويمتاز هؤلاء العشاق الثلاثة بالجد فى العشق، وبالحرص على كرامة الحب، وبالإشادة بالعفاف. فالهوى عندهم شريعة وجدانية، وليس لهوا ولا عبثا. أولئك رجال آمنوا بالحب فعظموه ومجدوه، واستهانوا من أجله بما يقاسى عباد الجمال من مصائب وأهوال. وهذا كله وجدناه فى سيرة حبهم الحقيقى العذرى كمحبة جميل إلى بثينة، وكثير إلى عزة، والعباس إلى فوز، التى أشارت إلى الجانب الروحانى من حيوات هؤلاء الشعراء، وهو الجانب الخاص بالوفاء الذى هو اللون الثابت من ألوان التماسك الروحى، وذلك هو السبب فى عده من مكارم الأخلاق.

ولا يسع هذا البحث لسرد قصة هؤلاء العشاق بجملتها، ولأن اكاتب لا يقصد لذلك، وإنما يراد لكشف ما وراء تلك القصة التى تتضمن فى طياتها. وجملة القول أن الحب العذرى هو الحب أو العشق اللهيب بين الرجل والمرأة الذى لا ينتهى إلى جمعهما جسديا بسبب أو بآخر، وإنما يجمعهما روحيا، ويخلد ولا يهدأ نار هذا الحب فى قلبهما إلى أن فارقتهما الحياة. وأما الحب الإباحى فبعكس ذلك.

إن العذريين والإباحيين كانوا جميعا من أهل الحجاز كما قد ذكرناه، إلا أن هذين الفريقين يختلفان من ناحية الحياة الاجتماعية والبيئة ومكانتهما

---

[٥٤] زكى مبارك، *العشاق الثلاثة*، ص.٢٣

فيها. فالإباحيون من أهل الحاضرة يعيشون فى مكة والمدينة، على حين أن العذريين من أهل البادية يعيشون فى بادية الحجاز أو نجد. فالإباحيون من أبناء المهاجرين والأنصار أو من المتصلين بهم، والعذريون من قبائل أعرابية ليس لها شأن عظيم فى الإسلام، وإنما هى محتفظة احتفاظا شديدا ببدواتها القديمة وعاداتها الجاهلية الموروثة. أو قل إن الإباحيين يكونوا فى الطبقة الأولى من الأرستقراطيين ("البرجوزيين") فى المجتمع،فى حين أن والعذريين من الطبقة السفلى من البروليتريين الفقراء.

ولئن كان يختلف هذان الفريقان من حيث المكانة الاجتماعية وبالتالى تؤثر أيضا فى سلوكهم الاجتماعى وطريق تعبيرهم الشعورى، إلا أنهما يتفقان فى واقع واحد وظاهرة واحدة وهو اليأس والحزن يعانيان من أهل الحجاز جملة. فلنعد الآن إلى التاريخ لبيان تلك الظاهرة. كما قد بيناه أن الحب العذرى الإباحى نشآ أن كانت أمية استولت على الخلافة، و لم تمض أيام قليلة من أيام خلافتها حتى غيرت هذه الخلافة أنظمة وأبنية الحكومة التى ثبتت من قبل. وكانت الخلافة الأمية لم تعد تجعل البلاد العربية (الحجاز وما يليه) كمقر ومركز سياسى هام، وإنما نقلته إلى الشام، وكما انتقل أيضا مركز المعارضة منها إلى العراق.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانت هذه الخلافة –كما أشار إليه التاريخ– تميل أكثر إلى خلفائها من ذوى القرابة، وتركوا غيرهم من كبار الصحابة وأبنائهم فى سياسة الدولة وتدبيرها وتنظيمها. بالرغم من أن الخلافة الأموية تكرمهم من ناحية مادية ومالية، ولكنها تهمشهم من ناحية سياسية.

وهؤلاء الأجيال من أبناء المهاجرين والأنصار يعيشون بكفاية وثراء من الأموال، وهم مع ذلك يعيشون فى حالة غير مطمئنة، أو قل فى أزمة ذاتية لأنهم يعانون من التهميش فى دورهم السياسى الملحوظ لتخليهم من الرياسة والمكانة المرموقة وسط مجتمعهم بعد أن كانوا ممن ذاقوا حلاوة تلك المكانة. وهذه الحالة، بطبيعة الحال، أدتهم إلى اليأس والحزن والأزمة النفسية، وبالتالى أدتهم إلى اللهو والاسراف للفرار من يأسهم وحزنهم. ومن هؤلاء الشبان الأشراف اليائسين عمر ابن أبى ربيعة وأمثاله فى مكة، والأحوص بن محمد وأمثاله فى المدينة، ونشاؤا هؤلاء بين المغنين وأهل المزاح.

والعذريون كذلك هم يعانون من اليائس والحزن فى مواجهة حياتهم الاجتماعية القاسية ليس أقل مما يعانيه من الإباحيون (المحققون). لم يتح لهم اللهو كما أتيح للإباحيين لأنهم من الفقراء، ولكنهم تأثروا بالإسلام، وبالقرآن خاصة، فنشأ فى نفوسهم شيئ من التقوى ليس بالحضرى الخالص، وليس بالبدوى الخالص، ولكن فيه سذاجة بدوية، وفيه رقة إسلامية. ومن أجل ذلك، فالعذريون مع يأسهم وحزنهم لفقرهم من ناحية، ولحرمانهم من معشوقاتهم من ناحية أخرى، فهم لا يهربون إلى اللهو المكروه والعبث المبغوض أو الإقدام على الأعمال غير شرعية، ولكنهم التجأوا إلى اصطناع الشعر يغنون به تعبيرا عن مشاعرهم اليائسة والحزينة وتخلصا منها.

ومن هنا، لقد صح ما قيل أن الأدب صورة المجتمع تعكس عليه حياة الشعب الثقافية والسياسية والاجتماعية وغيرها من مآسيهم وسعادتهم، حزنهم وفرحهم. ويتأثر الأدب بالظروف المحيطة به والمجتمع الذى يوجد فيه، وبالبيئة

التى تفسر حياتهم وبالطبيعة التى يعيش بخيالها وغير ذلك.

٨. الخلاصة

إن الشرح عن مسألة الحب وتفاصيله كما هو المذكور إن دل على شيئ، فإنه يدل أن الحب هو عنصر ثابت فى الوجود لا يمكن تجاهله أو إنكاره، وهو الشغل الذى يشغل بال الناس جميعا عامتهم وخاصتهم، بما فيهم الفلاسفة حيث يسعون لإدراك ما بين الإنسان والعالم من صلة وعلاقة، ويكشف عما يربط بينهما من ألفة ومحبة وصداقة، علما بأن الفلسفة كما يعرفها هيدجر (Heidegger) هى "حكمة الحب" كما أنها أيضا "محبة الحكمة" عند تعريف الفلاسفة غيره. والله أعلم بالصواب.

زمزم أ. عبد الله: مدرس بكلية الأدب الجامعة سونن كاليجاكا.